جهود ملوكنا العلويين في سبيل النهوض بالمغرب

بقلم **الاستاذ الشيخ محمد حدو أمزيان**
عميد كليـــة اصـول الدين بتطـــوان
ورئيـــس المجلـــس العلمـــى بهـــا

تكلمنا حول هذا الموضوع فى العدد السابق من هذه المجلة الاصيلة ، عن جهود بعض ائمتنا المقدسين من هذه الاسرة العلوية الشريفة ، فـــى سبيل النهوض بالمغرب ، وكان الحديث يدور حول اصلاح التعليم الاسلامى ، باعتباره اهم اسس الحياة المغربية الاصيلة ، واليوم نخص بالحديث احد اقطاب ملوك المغرب العظام ، وجهوده المشكورة فى سبيل النهوض بالمغرب ، والسير به قدما فى طريق الاصلاح والتقدم .

مولاى الحسن الاول (1290 — 1311 هـ)

فى الحقيقة ان مولاى الحسن الاول هـــو الملك الذى عرف داء المغرب ودواءه . واذا اردنا ان نعطى لشخصيته وصفا حقيقيا ، استنادا الى ما نعرفه جميعا عن تاريخه المجيد ، فاننا لا نأتى بجديد اذا ما قلنا انه كان ملكا مصلحا وصالحا فى نفس الوقت ، والصلاح والتقوى ميزة عامة فـــى هؤلاء الائمة الملوك الذين يفتخر المغاربة باماماتهم الدينية والدنيوية . وليس ادل على تقديس الشعب لهم من ان اى متمرد أو ثائر مجنون كان يرتمى امام أحدهم ليمرغ جبهته فى التراب اذا ما واجه مقام الملك الامام . وان افراد الشعب اذا اتيحت لهم فرصة اللقاء والرؤية لجنـــاب الملك الشريف كانوا يتمسحون بثوبه ويقبلون اى طرف من الركاب المنيف . وكان يحصل هذا لمولاى الحســـن الاول هذا الملك العظيم الذى حيث قضى عهده فى الرحلات والطواف على اجزاء المملكة المغربية القريبة منها والنائية . ذلك معناه انه كان صالحا مصلحا بمعنى الكلمـــة .

كان اسلافه السابقون يوجهون عنايتهم الى التعليم الاسلامى المتمثل فى جامعة القرويين وفروعها وقد بلغوا فى ذلك الغاية كما اوضحنا فى الموضوع السابق . ولما جاء مولاى الحسن الاول ، كان الوقت قد تغير عما كان من قبل ، والظروف قـــد تطورت سريعا . كان المغرب يمثل جزيرة وحيدة تقريبا فى محيط جبار من الاستعمار الاوربى الذى طغى على العالم الاسلامى من المحيط الاطلسى الى المحيط الهادى . فكان دوره آتيا لا ريب فيه مهما بلغ من الصمود والاعتزاز والنفور من هذا الاستعمار ومغرياته ، وامام الحضارة الحديثة التى يحمل لواءها ويتخذها ذريعة لابتلاع الشعوب والاستيلاء على خيرات بلادها .

نعم ، جاء مولاى الحسن الاول ، والمطامع الاوربية فى المغرب بلغت اشدها ، والوسائل الاجنبية قد طغت على كل وسائل الحذر والاحتياط . فأدرك العاهل المصلح انه لا بد من اتخاذ خطة جديدة واتباع وجهة جديدة ، ومواجهة الاعداء بمثل سلاحهم . ولم يكن سلاحهم من العلوم الدينية او العربية او ما مستواها ، وانما كان سلاحهم الذى شهروه على المغرب هو الحضارة الاوربية الحديثة بما فيها من الصناعات الحديثة والنظم العسكرية والنظم المالية ، وعلى العموم هو ادخال المخترعات الحديثة من قطار وكهرباء وتلفون وعربات ، الى غير ذلك من مظاهر الحضارة الاوربية التى كان المغاربة يقاومون فيها الاستعمار الاوربى الذى استعملها سلاحا ضد المغرب ووسيلة للتدخل فى شؤونه والقضاء على اعز ما عنده وهو الحرية والاستقلال . وقد طال العهد بهذه المقاومة الشعبية — والعرش المغربى دائما بجانب شعبه — ايام من سبقوا مولاى الحسن الاول من الملوك الصالحين حتى أوقفوا التيار عند حده والطامع الاجنبى عند منطلقه . ولكن الى متى ؟ فان بطلنا العظيم مولاى الحسن الاول وان عظم خطره على الاجانب وقوى شأنه وعلت هيبته بين شعبه وخارج حدود بلاده ، فان التيار كان اعظم من ان يقاوم ، والراى العام الدولى كان مجندا كله ضد المغرب فلم يجد مولاى الحسن الاول رحمه الله بدا من الاذعان ،وقبول مبدأ ادخال مظاهر هذه الحضارة الاوربية الى المغرب . ولكنه عزم على أن يأخذ ما يعرضونه عليه من اصلاحات وصناعات ، دون ان يعطى لهم ما يريدون من التدخل فى شؤون البلاد، ومن التوصل الى الاستعمار والاحتلال .

فكر مولاى الحسن الاول رحمه الله طويلا فى الامر وأدرك أن علاج الحالة لا بد له من تغيير وجهة النظر كما أسلفنا ، ومن تطوير أسلوب الاصلاح المتبع عادة من قبل الاسلاف . فانتقل من وجهة القرويين وعلوم القرويين ، من غير أن ينتقص من حقها طبعا ، الى ميدان التكوين الحديث والجندية الحديثة والبحرية الحديثة والى الثقافة الحديثة على العموم . بذلك وحده يقطع على الدول الاستعمارية الطريق الذى مهدوا له وخدموه ، والشبكة التى تفننوا فى ربطها حول المغرب . وبذلك ايضا يحقق للمغرب التقدم المادى العصرى فى ظل العزة القومية ، والسيادة الوطنية .

هكذا نشأت فكرة (البعثات الى أوربا) فى أواخر القرن الماضى . أساس الفكرة كما راينا هو ادخال مظاهر الحضارة الاوربية الحديثة الى المغرب ، ولكن على يد ابناء المغرب لا على يد ابناء الدول الطامعة فى استعمار المغرب .

ولكن الى أين يرسل هذه البعثات ؟ حتى هذا موضوع آخر محاط بالحذر والاشفاق والتفكير العميق . فكل دولة يخصها بالبعثات يكون لها امتياز قد تتخذه ذريعة للتدخل فى شؤون المغرب . لهذا قرر ان يرسل البعثة الاولى سنة 1291 هـ مكونة من (15) طالبا مقسمين بالتساوى على خمس دول اوربية هى : فرنسا ، انجلترا ، اسبانيا ، المانيا ، ايطاليا . وهى رؤوس الاستعمار الاوربى فى ذلك العصر ، وبينها اشد التنافس على المغرب الذى استشرى فيه الداء ، وعرف مولاى الحسن الاول الدواء ، فهل نراه ينجح فى العلاج والمداواة ؟

تمر الايام والبعثات تترى الى أوربا ويتزايد عدد أفرادها ، حتى بلغ عدد هذه البعثات (7) سبعا وبلغ عدد أفراد مجموعها (321) طالبا ، جلهم تخصص فى العلوم والفنون الصناعية والجندية

والصناعة الحربية · ونلاحظ ان مولاى الحسن الاول قد جرب لاول مرة القطار والكهرباء والتلفون فى عاصمة مراكش فى هذه الاثناء · كما صنع سفينة تجارية حديثة نعلم اسمها وهو (بشير السلام بخوافق الاعلام) وهذا الاسم يحمل اكثر من معنى ، اذ يعبر عن رغبة المغرب وعاهله العظيم فى السلام وفى العيش فى وئام مع جميع الدول ، وفى نسيان عهد الحروب الدينية ، والقرصنة البحرية المتبادلة · ورغم كل ذلك لم يرض الطامعين ان يكون للمغرب اسطول فى البحر ، فكيف يرضون ان يكون له علماء فنيون من ابنائه ؟ على كل حال اكتفى مولاى الحسن الاول بسفينة واحدة ، صنعها فى ايطاليا ، اقل الدول اطماعا فى المغرب ، واحترم شعور اعدائه ابقاء على ما بقى من وسيلة لاتقاء شرهم . ثم اخذ يستقبل طلابه العائدين من اوربا ، وكلهم حماس فى خدمة الوطن والعرش ، وتجندوا للعمل فى المصانع والثكنات العسكرية ، رغم الجو الخانق الذى عاشوا فيه ، ومضى عليهم التاريخ كما يمضى على الجنود المجهولين ، ولم يذكر منهم الا افرادا قليلين تقلدوا بعض المناصب المهمة .

انتقل مولاى الحسن الاول رحمة الله عليه الى الرفيق الاعلى وترك المغرب كمريض على فراش الموت · وقد عرف داءه وعرف دواءه ولكن الداء كان اكبر واقدم من الدواء ، والعلاج جاء متاخرا عن الوقت المناسب لحسم العلة الفادحة ، فلم يستطع مولاى الحسن الاول رحمه الله ان يقضى على كل الداء وكل ما استطاع فعله بعد جهد جهيد انه اخر المصاب الى حين . وهكذا لم يسع ابناءه من بعده الا ان يسلموا الامر للمشيئة ويخضعوا للظروف القاسية المتحكمة فدخل المغرب فى عهد الحماية الذى كواه بناره فكان آخر الدواء الكى كما تقول الحكمة العربية . وهكذا لما اشتد الامر ، وضاقت الصدور رجع المغاربة الى القرويين الى كنز الوطن الثمين ، والحرز المنيع والرائد الذى لا يكذب اهله فحمل راية الاسلام والوطنية وبدا التاريخ يعيد نفسه وقد فتح المغرب طريقه نحو المستقبل اللائق به وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم . رحم الله مولاى الحسن الاول وجزاه على اعماله وعلى نياته الحسنة ، ورحم كل العاملين لخير هذا الوطن ممن سبق وتاخر وانصر اللهم ملك العصر وارث سر هذه الدولة العلوية الزكية وقبلة جميع المغاربة ، الذى حقق الامانى بالهمة ووحد الاراضى بالحكمة وقاد الامة فى مسيرة الحياة الكريمة، مولانا الحسن الثانى · وبارك اللهم له فى ولى عهده الميمون سيدى محمد ، وسائر افراد اسرته الشريفة ، ما بقى فى هذا الوطن علم مرفوع فى ظل الاسلام وشريعة القرآن آمين .